الكتب

على هامش السيرة

للدكتور طه حسين

مقدمة

هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين، لاني لم ارد بها الى العلم، ولم اقصد بها الى التاريخ، وانما هي صور عرضت لي اثناء قراءتي للسيرة فاثبتها مسرعا. ثم لم ار بنشرها بأسا، ولعلي رأيت في نشرها شيئا من الخير. فهي ترد على الناس اطرافا من الادب القديم، قد افلتت منهم وامتنعت عليهم. فليس يقرؤها منهم الا اولئك الذين اتيحت لهم ثقافة واسعة عميقة في الادب العربي القديم. وانك لتلتمس الذين يقرأون ما كتب القدماء في السيرة وحديث العرب قبل الاسلام فلا تكاد تظفر بهم. انما يقرأ الناس اليوم ما يكتب لهم المعاصرون في الادب الحديث بلغتهم او بلغة اجنبية من هذه اللغات المنتشرة في الشرق. يجدون في قراءة هذا الادب من اليسر والسهولة ومن اللذة والمتاع ما يغريهم به ويرغبهم فيه، فاما الادب القديم فقراءته عسيرة وفهمه أعسر، وتذوقه اشد عسراً. واين هذا القارىء الذي يطمئن الى قراءة الاسانيد المطولة والاخبار التي يلتوي بها الاستطراد وتجور بها لغتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل، والذوق الهين الذي لا يكلف مشقة ولا عناء.

ذلك الى ان الادب القديم لم ينشأ ليبقى كما هو ثابتا مستقرا لا يتغير ولا يتبدل، ولا يلتمس الناس لذته الا في نصوصه يقرأونها ويعيدون قراءتها، ويستظهرونها، ويمعنون في استظهارها: انما الادب الخصب حقا هو الذي يلذك حين تقرأه لأنه يقدم اليك ما يرضي عقلك وشعورك، ولأنه يوحي اليك بما ليس فيه، ويلهمك ما لم تشتمل عليه النصوص. ويعيرك من خصبه خصبا، ومن ثروته ثروة، ومن قوته قوة، وينطقك كما أنطق القدماء، أو لا يكاد، يستقر في قلبك حتى يتصور في صورة قلبك، او يصور قلبك في صورته. واذا انت تعيده على الناس، فلقيه اليهم في شكل جديد يلائم حياتهم التي يحيونها، وعواطفهم التي تثور في قلوبهم، وخواطرهم التي تضطرب في عقولهم.

هذا هو الادب الحي، هذا هو الادب القادر على البقاء ومناهضة الايام. فاما ذلك الادب الذي ينتهي اثره عند قراءته فقد تكون له قيمته، وقد يكون له غناؤه، ولكنه ادب موقوت يموت حين ينتهي العصر الذي نشأ فيه. ولو انك نظرت في آداب القدماء والمحدثين، لرأيت منها طائفة لا يمكن ان توصف بأنها آداب عصر من العصور او بيئة من البيئات، او جيل من الاجيال، وانما هي آداب العصور كلها والبيئات كلها والاجيال كلها. لا لأنها تعجب الناس على اختلاف العصور والبيئات والاجيال فحسب، بل لأنها مع ذلك تلهم الناس وتوحي اليهم، وتجعل منهم الشعراء والكتاب والمتصرفين في الوان الفن على اختلافها

وليس خلود الالياذة يأتيها من انها تقرأ فتحدث اللذة، وتثير الاعجاب في كل وقت، وفي كل قطر، بل هو يأتيها من هذا ومن انها قد الهمت، ومازالت تلهم الكتاب والشعراء، وتوحي اليهم بأروع ما أنشأ الناس من آيات البيان. ولقد كان ايسكولوس ابو التراجيديا اليونانية يقول: انه انما يلتقط ما يسقط من مائدة هوميروس، ومازال القصاص وشعراء التمثيل والغناء في الغرب خليقين ان يقولوا الآن ما كان يقوله ايسكولوس منذ خمسة وعشرين قرنا، ولم تكن قصص ايسكولوس وغيره من شعراء التمثيل اليوناني اقل خصبا من الالياذة، بل هي قد ألهمت من ألهمت من الكتاب والشعراء قديما وحديثا، ومازالت قادرة على أن تلهمهم الى اليوم والى غد. واني لأذكر اني قرأت منذ أعوام قصة تمثيلية هي الثامنة والثلاثون من نوعها وقد سماها صاحبها «جيرودو» وبهذا الرقم. فوضع لها هذا العنوان «انفيتريون رقم ٣٨» كانت اسطورة تتصل بمولد هيرقل، فصورها سوفوكل قصة تمثيلية في القرن الخامس قبل المسيح. وما زال الشعراء والكتاب من اليونان والرومان والاوربيين المدنيين يتأثرونه ويذهبون مذهبه او غير مذهبه في تصوير هذا الموضوع حتى انتهت القصص التي كتبت فيه شعرا ونثرا الى هذا العدد الضخم، ولم يحجم فحول التمثيل عن طرق هذا الموضوع لأنهم سبقوا اليه، بل زادهم ذلك حرصا عليه، ورغبة فيه، وكان بين الذين طرقوه الشاعر اللاتيني بلوت، والشاعر الفرنسي موليير. ثم لم يشفق جيرودو من ان يطرق موضوعا سبقه اليه الفحول من شعراء التمثيل

فى العصور القديمة والحديثة ... فصور قصته هذه الثامنة والثلاثين وعرضها على النظارة فى باريس سنة ١٩٢٩ ، فكان فوزها عظيما واعجاب النظارة والقراء بها لا حد له .

وفى أدبنا العربى على قوته الخاصة ، وما يكفل للناس من لذة ومتاع ، قدرة على الوحى ، وقدرة على الايهام . فاحاديث العرب الجاهليين واخبارهم لم تكتب مرة واحدة ، ولم تحفظ فى صورة بعينها ، وانما قصها الرواة فى الوان من القصص ، وكتبها المؤلفون فى ضروب من التأليف ، وقل مثل ذلك فى السيرة نفسها ، فقد ألهمت الكتاب والشعراء فى اكثر العصور الاسلامية وفى اكثر البلاد الاسلامية ايضا . فصوروها صوراً مختلفة تفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفنى ، وقل مثل هذا فى الغزوات والفتوح . وقل مثل هذا فى الفتن والمحن التى اصابت العرب فى عصورهم المختلفة . ولم يقف إلهام هذا التراث الادبى العظيم عند الكتاب والشعراء الذين ينمقون النثر ويقرضون الشعر فى اللغة العربية الفصحى ، بل تجاوزهم الى جماعة من القصاص الشعبيين الذين تحدثوا الى الناس فى صور مختلفة واشكال متباينة بما كان لآبائهم من مجد مؤثل ، وبما اصاب آباءهم من محن مظلة ، وفتن مدلهمة ، عرفوا كيف يثبتون لها ويصبرون عليها ، ويخرجون منها كراما ظافرين ، ولا خير فى حياة القدماء اذا لم تلهم المحدثين ولم توح اليهم بروائع البيان شعرا ونثرا ، وليس القدماء خالدين حقا اذا لم يكن التماسهم الاعذار لنفسهم ، ولا تعرف انباؤهم الا فيما تركوا من الدواوين والاسفار ، انما يحيا القدماء حقا ، ويخلدون حقا ، اذا امتلأت بصورهم وأعمالهم قلوب الأجيال مهما يبعد بها الزمن . وكانوا حديثا للناس اذا لقى بعضهم بعضا ، وكنوزا يستثمرها الكتاب والشعراء لأحيائهم ما يعالجون من الوان الشعر وفنون الكلام .

الى هذا النحو من احياء الادب القديم ، ومن احياء ذكر العرب الاولين قصدت حين أمليت فصول هذا الكتاب . ولست اريد ان اخدع القراء عن نفسى ولا عن هذا الكتاب ، فانى لم أفكر فيه تفكيرا ، ولا قدرته تقديرا ، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون ، انما دفعت الى ذلك دفعا ، واكرهت عليه اكراها ، ورأيتنى اقرأ السيرة فتمتلىء بها نفسى ، ويفيض بها قلبى ، وينطلق بها لسانى ، وإذا أنا أملى هذه الفصول وفصولا أخرى اوجوان تنشر بعد حين .

فليس فى هذا الكتاب اذن تكلف ولا تصنع ولا محاولة للاجادة ولا اجتناب للتقصير ، وانما هو صورة يسيرة طبيعية صادقة لبعض ما اجد من الشعور حين اقرأ هذه الكتب التى لا اعدل بها كتبا اخرى مهما تكن ، والتى لا أمل قراءتها ، وآنس اليها ، والتى لا ينقضى حبى لها واعجابها ، وحرصى على ان يقرأها الناس . ولكن الناس مع الاسف لا يقرأونها لأنهم لا يريدون ، او لأنهم لا يستطيعون . فاذا استطاع هذا الكتاب ان يحبب الى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة وكتب الادب العربى القديم عامة ، والتماس المتاع الفنى فى صحفها الخصبة . فانا سعيد حقا موفق حقا الى احب الأشياء الى وآثرها عندى .

واذا استطاع هذا الكتاب ان يلقى فى نفوس الشباب حب الحياة العربية الاولى ، ويلفتهم الى انها فى سذاجتها ويسرها جمالا ليس اقل روعة ولا نفاذا الى القلوب من هذا الجمال الذى يجدونه فى الحياة الحديثة المعقدة ، فانا سعيد موفق الى بعض ما أريد .

واذا استطاع هذا الكتاب ان يدفع الشباب الى استغلال الحياة العربية الاولى واتخاذها موضوعا قيما خصبا ، لا للانتاج العلمى فى التاريخ والادب الوصفى وحدهما بل للانتاج فى الادب الانشائى الخالص . فانا سعيد موفق الى بعض ما اريد .

ثم اذا استطاع هذا الكتاب أن يلقى فى نفوس الشباب أن القديم لا ينبغى أن يهجر لانه قديم ، وأن الجديد لا ينبغى أن يطلب لانه جديد ، وانما يهجر القديم اذا برىء من النفع وخلا من الفائدة ، فان كان نافعا ومفيدا فليس الناس أقل حاجة اليه منهم الى الجديد فانا سعيد موفق الى بعض ما أريد

وانا أعلم أن قوما سيضيقون بهذا الكتاب لأنهم محدثون يكبرون العقل ، ولا يثقون الا به ، ولا يطمئنون الا اليه ، وهم لذلك يضيقون بكثير من الاخبار والاحاديث التى لا يسيغها العقل ولا يرضاها ، وهم يشكون ويلحون فى الشكوى حين يرون كلف الشعب بهذه الاخبار ، وجده فى طلبها وحرصه على قراءتها والاستماع لها ، وهم يجاهدون فى صرف الشعب عن هذه الاخبار والاحاديث واستنقاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول . هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشىء لانهم سيقرأون فيه طائفة من هذه الاخبار والاحاديث التى نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس ، وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شىء ، وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة الى الغذاء والرضى من العقل ، وأن هذه الاخبار والاحاديث اذا لم يطمئن اليها العقل ولم يرضها المنطق ولم تسغها أساليب التفكير العلمى ، فان فى قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم

وخيالهم وميلهم الى السذاجة واستراحتهم اليها من جهد الحياة وعنائها ما يحبب اليهم هذه الاخبار ، ويرغبهم فيها ويدفعهم الى أن يلتمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشق عليهم الحياة . وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الاخبار الى العقل على أنها حقائق يقرها العلم وتستقيم لها مناهج البحث ، ومن يقدمها الى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير ، صارفة عن بواعث الشر ، معينة على انفاق الوقت واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش

وأحب أن يعلم الناس أيضا انى وسعت على نفسى فى القصص ومنحتها من الحرية فى رواية الاخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأسا الا حين تتصل الاحاديث والاخبار بشخص النبى أو بنحو من انحاء الدين ، فانى لم أبح لنفسى فى ذلك حرية ولا سعة ، وانما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين .

ولن يتعب الذين يريدون أن يردوا فصول هذا الكتاب القديم فى جوهره وأصله ، الجديد فى صورته وشكله ، الى مصادره القديمة التى أخذ منها ، فهذه المصادر قليلة جداً لا تكاد تتجاوز سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، وتاريخ الطبرى . وليس فى هذا الكتاب فصل أو نبأ أو حديث الا وهو يدور حول خبر من الاخبار ، ورد فى كتاب من هذه الكتب ، فاذا اتصل الخبر بشخص النبى فانى أرده الى مصدره ليستطيع من شاء أن يرجع اليه ، لا أحتمل فى ذلك تبعة خاصة لانى لا أذهب فيه مذهبا خاصا الا أن يكون تبسطا فى الشرح والتفسير ، واستنباط العبرة ، والوصول بها الى قلوب الناس

فليسر الله سبيل هذا الكتاب الى النفوس ، وليحسن الله موقعه فى القلوب ؟

طه حسين

بيير فيللبه

(بقية المنشور على صفحة ٦)

بعضهم من بعض أو تقليد المؤلفين بعضهم لبعض لا يعنى أصحاب الاستقصاء من العلماء وحدهم ، وانما يمكن أن يقال فى كتبه كلها ما قاله اميل بوترو حين قرأ كتابه الأول : « إنه يظهر فى هذا الكتاب مفكراً مرويا ، ماهرا ، نفاذا ، فيلسوفا ، يمس بدقة غريبة أخفى الفروق . وما بين الافكار والآراء من صلات » .

ولكن أتراه انفق جهده الضعيف الخصب كله فى درس مونتينى ؟ ألم ينته الا الى طبعة كتاب مونتينى التى ظهرت سنة ١٩٢٢ والتى وصفها اخصائى مادر هو المسيو هنرى شمار فقال انها توشك أن تبلغ الكمال . كلا . فلنذكر كتابه الذى سماه مصادر الآراء فى القرن السادس عشر ؛ أو كتابه عن المصادر الايطالية لمقالة الدفاع عن اللغة الفرنسية الذى يظهر فيه بين ما أظهر من الغرائب أن القسم الذى يثبت فيه ديبلليه مساواة اللغة الفرنسية للاتينية واليونانية ليس الا ترجمة من كتاب سيرون سيرونى ألفه فى مدح اللغة التسكانية . ولنذكر ابحاثه عن دوبينيه وأبحاثه عن مونلوك ؛ وأحدث كتبه الكبرى (مارو ورابليه) . فهو قد عنى بروضته وهى هذه الروضة النضرة روضة النهضة الفرنسية ، فلم يهمل منها شيئا .

ثم هو لم يكتف بخدمة الآداب ، وانما انفق اعظم جهده المادى والعقلى والشعورى فى الاحسان الى اصدقائه المكفوفين . فعاش كما عاش فالنتان هاوى ؛ وبراى ؛ وموريس دى لاسيزران . وقد استحق من المكفوفين تقديس ذكراه بكتابه « عالم المكفوفين » وكتابه « تربية المكفوفين » وباحسانه اليهم فى غير انقطاع .

اما حياته الخاصة ، اما المعونة التى وجدها عند زوجه بنت أميل بوترو التى تأثرت بوفاء امها لابيها ، فلم تفارق زوجها يوما واحداً والتى كادت تموت معه يوم ٢٤ اكتوبر ؛ فلا استطيع ان اشير اليها الا فى خفة وسرعة ، وحرص شديد على ما ينبغى من التحفظ . ولكن جميع الذين عرفوا بيير فيللبه وأحبوه يرون من الخير والعدل أن أقول فيه ما قاله مونتينى حين تحدث عن صديقه ايتين دى لابويسى : « انى أعرف كثيراً من الناس يمتازون بانحاء من الخير والجمال ، هذا يمتاز بالعقل ، وهذا يمتاز بالقلب ، وهذا يمتاز بالمهارة ، وهذا يمتاز بالضمير ، وهذا يمتاز بالحديث ، وهذا يمتاز بعلم ، وهذا يمتاز بعلم آخر ، اما هذا فقد كان حقا ذا نفس مليئة وكان يستقبل الاشياء كلها احسن استقبال : نفسا من تلك النفوس التى وسمها القدم بسمة العتق والرقى الصحيح » ؟

تصدر الرسالة
فى يوم الاثنين
من كل أسبوع